أعلام القصة في الأدب الإنجليزي الحديث

بحث تقدم به د. طه محمود طه

١ ـ فرجينيا وولف ١٨٨٢ ـ ١٩٤١

١ ـ مقدمة ٢ ـ حياتها ٣ ـ فنها القصصي ٤ ـ أعمالها ـ « حجرة يعقوب » ـ « مسز دالواي » ـ « الى الفنار » ـ « الامواج » .

***

تركز شهرة فرجينيا وولف على دعامة لا تمت لفن كتابة القصة التقليدي في شيء ، ويمكننا تقييم أعمالها عن طريق قدرتها التي تنحصر في اعتبار القصة وكأنها حالة من الاحساس المستمر الآني وليس عن طريق قواعد كتابة القصة ـ فهي لم تكن تحدق من سرد (الحدوتة) التي تعتمد اعتمادا كبيرا على رسم الشخوص والحركة الخارجية . فقصصها بوجه عام تصوير للخاطر الذي تعيشه شخوصها وانعكاس لتلك اللحظات العابرة في حياة الانسان وتسجيل للحظات النشوة الخاصة . ولم تتخل فرجينيا وولف ابدا عن الوهم الذي كان يدفعها الى الاعتقاد بأن شخوصها من هذا الصنف من الناس الذي يستجيب ملحات النفس والمشاعر ، ولانها لم تعر عالم الواقع المادي من حولها اي اهتمام ، لحدها تتفاضى عنه تارة وتشك في قيمته وحقيقته تارة اخرى . ولهذا تفضل طريق البحث عن سر الحقيقة والسعي وراء هدف يراوغها بدلا من السعي وراء الحقائق الخارجية الملموسة . وحاولت في معظم انتاجها الأدبي ان تكشف عن سر تلك الحقيقة الروحية الصوفية التي تكمن خلف ستر من تجارب الحياة وتقول :

« ما الذي نعنيه بكلمة « الحقيقة » ؟ يبدو ان الكلمة تعني شيئا لا يستقر على حال ، شيئا لا يمكننا الاعتماد عليه ، شيئا يمكننا ان نجده الآن في طريق مترب ، واحيانا في ورقة من جريدة ملقاة في شارع ، واحيانا في زهرة في الشمس ، واحيانا تضيء الطريق لمجموعة من الناس في حجرة ، واحيانا تضفي مغزى على قول عابر . »

والعالم في نظرها عالم صور وعالم أسرار ، صور تمر سراعا ، وأسرار دفينة في نفوس أصحابها وفي الأشياء من حولها ـ وتعبر في قصصها عن العالم بهذه الصور الروحية فيما يشبه الشعر الغنائي او ما يشبه التراتيل التي تتسم بالسمو الصوفي . وتستعين في تبيان هذه الصور بانطباعات تقتنصها تباعا من خاطر شخوصها وتضفي

عليها رموزا ملهمة تزيد من ايحاءاتها ومعزاها ، واذا كانت هذه الرؤى لايمكن الاحتفاظ بها لوقت طويل ، فللفن ـ كالرسم والتصوير والشعر والقصة ـ القدرة على حبسها والاستفادة منها واذا كانت هذه اللحظات العابرة ، لحظات النشوة الخاصة ، مهمة في حد ذاتها ، فان ما يفعله بها الفنان او الانسان هو الأهم .

وقد كانت فرجينيا وولف شاعرة مرهفة الحس بتعصها الدراية بفن كتابة الشعر ولهذا اضافها الاحتياط الى حد ما في كل ما كتبت نثرا . فنحن نجد في اسلوبها النثري في قصصها خصائص الشعر الغنائي . ومضمونه وعدوبته ومادته ولما كان ميدانها ووسيلتها الكلمة المكتوبة بكل ما تحمل من اثارات وايحاءات سحرية عن طريق اللون وتوافق الانغام فقد اتجهت لكتابة القصة وتحدد بذلك مجالها ـ وربما تستطيع القصة في المستقبل ان تستفيد من هذا الاسلوب الشاعري وتجمع بين خصائص النثر الفني في القصة والاسلوب الشاعري في القصيدة ويحدث التراوح السعيد بين القصة والقصيدة على غير ما العهد في الملاحم ، وقد اقترب القصصي الايرلندي جيمس جويس من هذا اللون من النثر الشاعري في قصتيه « صورة للفنان كشاب » ، « عوليس » . وان كانت فرجينيا وولف قد اهملت الحركة الخارجية والصراع في شخوصها فقد نجحت في نقل هذه الحركة الى داخل العقل نفسه الذي اصبح مسرحا لتفاعل الافكار واستقبال الانطباعات الحسية المختلفة التي تنقلها اليه الحواس الخمس . وتقول في مقال لها عن القصة الحديثة :

« تامل ذاتك من الداخل وسيبدو لك ان الحياة بعيدة كل البعد عن هذا . افحص لفترة قصيرة عقلا عاديا في يوم عادي . فالعقل يتقبل مالا يعد او يحصى من الانطباعات ، منها التافه والخيالي والزائل ، ومنها ما ينقش بصلب حاد . وتاتي هذه الانطباعات من جميع الاتجاهات ، سيل مستمر من الذرات التي لاحصر لها . وعندما تهبط هذه الذرات ، وعندما تتجمع لتعطي معنى ليوم الاثنين او الثلاثاء ، تبدا في الاهتمام باشياء لم نكن لنعيرها اهتماما في الماضي . وندرك ان اللحظة الهامة ليست هنا بل هناك ... الا ينحصر عمل الأديب في نقل هذه الروح المتغيرة التي لانعرفها ولا نستطيع تحديدها ؟ »

***

وقد ولدت فرجينيا في ٢٥ يناير عام ١٨٨٢ قبل مولد جيمس جويس باسبوع واحد (٢ فبراير عام ١٨٨٢) وتوفيت في نفس العام الذي توفي فيه جويس ، عام ١٩٤١ . وكانت سلسلة عائلة عريقة في الأدب فكان والدها « سير لزلي ستيفن » اديبا وفيلسوفا ومعلما ومحررا لمجلة « كورنهيل » وجامعا للمعجم العام « قاموس السير الوطنية »

كما كان متزوجا من صغرى بنات القصصي الكبير المعروف ثاكاري صاحب « سوق الغرور » . واستمدت فرجينيا وولف ثقافتها من مكتبة والدها وكان اصدقائه من المفكرين والادباء . وتذكر فرجينيا وولف انه عندما كانت فتاة صغيرة اعطاها والدها ، وكانت قد انتهت من قراءة مجموعة من الكتب من مكتبته ، الخيار

الخامس والسادس من مجموعه المؤرخ « حيون » « تداعي وسقوط الامبراطورية الرومانية » . ولقد اضافت فيرجينيا وولف الى القصة الانجليزية ما حصلته من الأدب الكلاسيكي الانجليزي والفرنسي واضفت على اسلوب النثر القصصي حساسية فائقة وشاعرية نادرة واناقة في الاسلوب . وقد قرأت فيرجسون وماسيل بروست وجيمس جويس وتعلمت منهم الشيء الكثير واصبحت اعظم كاتبة للقصة في القرن العشرين ، كما طورت استعمال (تيار الوعي) في القصة استعمله استعمالا رقيقا بنوع من الحساسية المرهفة .

فمن بروست استعارت فكرتها عن الشخصية السائلة المتغيرة ، وعن النفس التي هي « حركة » او « عملية » مستمرة متغيرة من حالة الى حالة اخرى واثرت هذا في فكرتها عن النفس المتعددة . وقرأت « عوليس » لجيمس جويس وكانت تنشر في مسلسلات في عام ١٩١٩ واقتبست منه طريقته في تبسيط وضغط « الحدوته » وتبسط وتوسيع ادراك الفرد وانطباعاته والتقاصي عن رسم الشخوص من الخارج وفكرته عما يجري داخل مسرح العقل من تداعي المعاني والانطباعات التي تحملها الحواس . واستجابت روحها الشاعرية لاسلوبه النثري الذي يزخر بالايحاءات والرموز وتتميز بالسيولة .

وربما خف خيالها اذا ما حاولت المض في سبيل هـ . ج . ويلز أو بينيت وربما كان طريقهم محفوفا بالأخطار بالنسبة لعملية مرهفة كعقليتها ولهذا بدت اتجاه من اطلقت عليهم « الماديين » فقد كانت الشخصية الخارجية بمثابة غلاف شفاف تستطيع ان تنفذ منه الى الحقيقة العارية الكامنة في شخوصها وتصل الى اعماقهم وتكتشف افكارهم ومشاعرهم وانطباعاتهم . وتقول « ان الحياة هي اهم شيء ، ولا شيء سوى الحياة . طريقة اكتشاف حالة الاحساس المستمرة هذه » ، واصبحت مادتها هي المادة الخام التي تكونها الذرات في وعي شخوصها ـ افكارهم ، مشاعرهم ، حصيلتهم من الحواس الخمس ـ تصبغها بالوان خيالها الزاهية وتحولها الى صور متتابعة عن طريق حساسيتها الشاعرية الدقيقة ثم تصقلها في كلمات تستطيع بها ان تنقلها الينا بنفس التتابع وبنفس الحيوية التي سجلتها بها . وهذا هو ما تعلمته من برجسون ومن تفريقه بين الزمان الآلي والزمان الذاتي أو الدوام .

***

وكانت فيرجينيا وولف تحجل من المجتمعات وتميل الى الصمت احيانا ولهذا كانت تتذبذب بين الحزن تارة والمرح تارة اخرى . ويعزو احد النقاد هذا التقلب في مزاجها وحيرتها وحزنها الى وفاة والدتها وكانت فيرجينيا وولف تتعلق بها ، ربما نرى صورتها في شخصية مسز رامزاي في قصتها « الى الفنار » . ويخيل الينا أنها قد شعرت ، بعد وفاة والدتها ، بأن الحياة قد غدرت بها مما دعاها الى التريث والحرص في انتقاء اصدقائها الا بعد فترة طويلة وعدم التعلق بهم . وتموت احتها الكبرى اثناء ولادة طفلها بعد وفاة والدتهما بوقت قصير وخلفت هذه الحادثة ايضا في نفسها جرحا غائرا لم تبرأ منه واحساسا اعمق بأن الحياة ما هي الا خداع .

ويموت الوالد في عام ١٩٠٤ ويصبح لافراد العائلة الاربعة دوره لا بأس بها ويقومون بشراء منزل في حي « بلومزبري » وهو حي في مدينة لندن يقطنه مجموعة من الادباء والفنانين واصبح لهذه المجموعة فيما بعد اسم معروف في الادب الانجليزي الحديث وسميت جماعة « بلومزبري » بالتباعد والتعالي الى حد ما وكان معظم افرادها من العقلانيين وأصحاب الأفكار الجديدة والمتكلمين . ولعباب فيرجينيا وولف نوع من الانهيار العصبي في عام ١٩٠٥ وكانت صغيرة الجسد مرهقة ، وسافرت الى اوروبا للنقاهة . وهناك راعها جمال اليونان وما لحضارتها القديمة من مغرى وتمسكت من استعادة صحتها ولكنها لم تنعم بها طويلا فقد صدمت مرة ثالثة لوفاة اخيها « توبي » الذي لم يستطع جسده الهزيل ان يقاوم حمى التيفود التي اصيب بها في اليونان .

وعادت فيرجينيا وولف الى انجلترا والفت نفسها في دوامة من الأعمال الأدبية الكثيرة فكانت تكتب المقالات وتلقي المحاضرات وتناضل في سبيل حقوق المرأة وبدأت تعمل في كتابة قصتها الاولى « رحلة الى الخارج » وانتهت من كتابتها في سبع سنوات . وفي هذه الاثناء اصبح لجماعة « بلومزبري » كيانها وان لم تتضح ملامحها كلية . وكان ليتون ستراتشي من بين اعضائها ثم انضم اليهـا روجر فراي الكاتب المسرحي وليونارد وولف (الذي تزوج فيرجينيا وولف عام ١٩١٢) وكلايف بيـل مايبارد كينيس وليدي اوتولاين موريل فورستر . وقد تناول كثير من النقاد هـذه المدرسة ويكفي ان نقول انه لولا نشاط فيرجينيا وولف وذكائها لما قدر لهذه المدرسة ان يظل اسمها معروفا او تسجل في تاريخ الأدب .

وكان للحرب العالمية الأولى اثرها الكبير في تحطيم صحة فيرجينيـا وولف وروحها المعنوية أثناء هذه الحقبة الشريرة واضطرت الى ترك مدينة لندن التي كانت تحبها وترضخت للظروف المحيطة بها وتحدت لنفسها مسكنا في رتشموند حتى تستطيع ، لو انها قريبة من لندن ، ان تتمتع بحجرة هادئة تفكر فيهـا وتكتب . وحاولت في هذه الفترة والهدوء ان تحلق حولا متكاملا يوضح القطع المتناثرة بعضها بجوار البعض الاخر في محاولة لاكتشاف معنى للحياة . وتوضح لنا مذكراتها هـذه المحاولة اروع توضيح كما احضرت معها من لندن مطبعة كانت العائلة قد اشترتها وهذه مغامرة جديرة بالتسجيل لان دار طباعة « هوجارث » اصبحت ملاذا لادباء الطليعة وكان طابعها الانتقاء وليس لها سياسة معينة بل كانت تأخذ على عاتقهـا تشجيع الأدباء المحدثين والمجددين .

وقد نشرت فيرجينيا وولف قصـاند للشـاعر ت . س . اليوت وكاترين مانزوفيلد قبل ان يحرزا الشهرة وتدر كتبهم ارباحا على الناشرين . ونشرت مطبعة « هوجارث » كذلك قصصا لفيرجينيا وولف ومقالات ونجحت فكرة المطبعة واتسعت دائرة اختصاصها وضاق بها المنزل في رتشموند وانتقلت اخيرا الى لندن ودرت على اصحابها دخلا متواضعا ولم تحقق ارباحا كثيرة في بادىء الأمر . وبالرغم من الكتب الكثيرة التي نشرتها فيرجينيا وولف في حياتها فلم يتسن لهـا ان تعيش الا لفترة قصيرة في حالة مالية رغدة . فقد نشرت « رحلة الى الخارج » في عام ١٩١٥ وبعدها

« ليس والنهار » في ١٩٣٠ ثم « الاعمى والثلاثاء » في ١٩٣١ وهي مجموعة من المقالات وفي عام ١٩٣٢ نشرت « حجرة يعقوب » وفي هذه الكتب لم تخرج الينا فيرجينيا وولف كما يحب ، فقصتها « رحلة الى الخارج » قصة تقليدية من حيث الحبكة ورسم الشخوص ، قصة فتاة ساذجة تدرك العلاقة بين الجنسين وتقع في الحب ولكنها تتوفى بعد اصابتها بالحمى قبل ان تحقق احلامها . وشخصية الفتاة مرسومة بعناية والفكرة المحورية في القصة تدور حول سر الحياة والموت وتوحي لنا فيرجينيا وولف ان السر يكمن في اعماق الوعي .

ولن نستطيع ان ندرك اهمية فيرجينيا وولف ككاتبة قصصية الا بعد « مسز دالواي » في عام ١٩٢٣ فبظهور هذه القصة تمكنت فيرجينيا وولف من ان تخطو بالقصة الحديثة خطوة جريئة الى الامام وتتكلم بصوتها الحقيقي الذي سجل لها الشهرة . وقد جلب لها هذا الكتاب الشهرة التي نرى لها صدى في مذكراتها ، تلك الشهرة التي كانت تتساءل حيالها . ومع الشهرة جاءت المشاكل العديدة ـ ضيوف غير مرغوب فيهم ، خطابات عديدة ، زيارات من والى ادباء وغير أدباء ، دعوات لالقاء المحاضرات أو للعشاء او للتحكيم او لحفلات كوكتيل . واخرجت لنا في ١٩٢٧ « الى الفنار » وبعدها « اورلاندو » ١٩٢٨ بعد صداقتها لفكتوريا ساكفيل ـ ويست .

وفي السنوات العشر الاخيرة من حياتها احدثت تكتب بحذق شديد كما تبين مذكراتها وكانت تخطط لكتاب جديد حتى ولو لم تفرغ من الكتاب الذي كان بين يديها . وظهرت قصتها « الامواج » في عام ١٩٣١ وبعدها « السنين » في عام ١٩٣٧ ثم « بين الفصول » ١٩٤١ ، وانتهت من هذا الكتاب قبل ان تحطم الحرب العالمية الثانية ارادتها وتقودها الى الانتحار غرقا في نهر « اوز » القريب من منزلها الريفي .

وفي السنوات الاخيرة لم تكل عريمتها أو يقل مجهودها كما نرى فقد كافحت وروحها الرفانة ودافعا عن حق النشر حتى عندما كانت الفريسة د.هـ.لورنس . وكانت سنوات حياتها الاخيرة سنوات قاسية اظهرت فيها امانة فكرية وروحا عالية في وجه الكوارث . ولا غرو في انها فضلت ان تتساق مع تيار نهر « اوز » كما استجابت في حياتها لتيار الوعي في شخوصها بدلا من العيش لمشاهدة زوال كل ما كانت تحبه .

***

ولو تساءلنا عما تستحق فرجينيا وولف من أجله من تمجيد لقلنا انه يرجع الى ربطها بين التصور الدقيق لماهية الشعر والحدق الممتاز في هذا التصور الابداعي وتقنه الى واقع قصصها . فقد حاولت ان تمزج الشعر بالنثر والقصة بالقصيدة العنائية . وقصصها تعني اكثر من مجرد تمكن من الصياغة اللفظية او القدرة على التعبير الصحيح عن المقصود . انها تعني أنها تعمل على مستوى ابداعي وتحيل حقيقي فهي تركز كل قواها في موضوعها وتزوده باكبر قسط من طاقتها وباكبر ما يمكن من ثروة عن طريق الاشارة والرمز والتداعي .

ولا تقدم لنا قصصها على انها افكار أو تداعي معاني أو تيار سائل من الوعي المستمر بل على انها تجربة حية . وانماطها الأدبي لا يحير العقل ويربك المنطق . كانتاج جيمس جويس بل غير مشاعر الانسان جميعها . ومما لا شك فيه انه يمكننا ان ننظر الى اعمالها نظرة عقلية . أو نظرة فلسفية ونستنبط مضموناتها العملية . الا ان فرجينيا وولف لم تقدم الينا قصصها على هذا النحو . فقصصها تنبثق بدفعة حية قوية من اعماق نفسها وتسيطر علينا كلية ولها تأثير مباشر كتأثير الموسيقى أو اللوحات الزيتية .

وقد ادركت فرجينيا وولف نقطة الضعف في قدراتها منذ البداية واعتمدت في فنها على التأثير عليا في نطاق محدود دون ان تهدد طاقاتها في الشكل القصصي أو في الشكل كما تعمد جويس في « عوليس » . ولهذه الاسباب مجتمعة وغيرها نجد انه بالرغم من عمق نظرتها وثرائها فليس من التجني اتهامها بانها محدودة وتذكرنا في هذا المجال بجين اوستن . والامر لايقتصر على ان كثيرا من تجاربها لايمكن مشاركتها فيها وغالبا ما تقع خارج نطاق حياتنا اليومية بل حتى انه في داخل مجالها الخاص بها لها اتجاهات وميول شاعرية صوفية قوية يصعب على الكثيرين منا تذوقها وتفهمها .

وتشهد قصصها بتجاوبها الكلي لحواسها جميعا . وتظهر ملذات البصر بوضوح ولكن عينها تعي بقدر ما تسمع أذنها وتشم انفها وتلمس يدها ويذوق لسانها . فهي استطاعتها الشعر بوحدة طعام يعكس الشعور والتذوق والخبرة التي تتمتع بها بمطر طبيعي او بشروق الشمس او عبير الازهار أو الحان قطعة موسيقية . ولا نستطيع ونحن نقرأ قصصها الا ان نعترف اننا بين يدي فنان لا يفوته شيء من حوله وان عقله متيقظ دائما لاستقبال وتسجيل ما تقدمه له الحواس . ولا يعني ذلك ان العنان مجرد جهاز تسجيل فحسب فمهمته هي « عزيلة » هذه الاحساسات وتصفيتها وتهيئتها ليتصيد منها ما هو حيوي وحي بتصيداته . فرجينيا وولف تسعى الانطباعات اللازمة لرسم صورتها وتسجع في ان تنقلنا الى داخل رؤوس شخوصها فنحس معها وهي تأكل وتشرب وتمشي وتصادق من تصادقها ونطلع على فكرياتها حتى نرى الشخوص كما ترى الشخوص نفسها . وبدلا من تتبع سيرة الشخوص تتبعا رسميا مسلسلا نراها تعيش في حاضر مستمر غني بمشاعرة حاضر يجذب الماضي اليه . ولهذا فشخوصها تبدو كافكار لاكشخوص حية بي قصة . فجوهر الفرد موجود في القصة في حالة سيولة دائمة تتميز بالوحدة في التعدد وقد تبدو الشخوص كاشباح ولكنها اشباح بالغتها وان كنا لانستطيع الامساك بها .

***

« حجرة يعقوب » ١٩٢٢

نرى اثر جويس واضحا في قصتها « حجرة يعقوب » في محاولتها الجادة لتطوير تكنيك كتابة القصة - فهي هذه القصة تحاول ان ترسم عن طريق الصور شخصية

شباب بحلبرى منذ طفولته حتى سن السادسة والعشرين عندما يفصل فى الحرب ويسجل لنا تجاربه فى لحظات خاطفة أو فى لوحات انطباعية سريعة لاتسلسل فيهـا ولا استمرار ، ولكنها شذرات واشتات من افكاره وانطباعاته بطريقة سينمائية تظهر فيها الصورة أو « اللقطة » لبرهة ثم تختفى رويدا رويدا لتحل محلها لقطة اخرى . الرابط الوحيد بين هذه الصور هو فيرجينيا وولف ذاتها التى تتحكم فى حركة المد والجزر هذه أو حركة القبض والبسط . واحيانا تزول الصورة سرعة قبل ان تأملها ونصبح من العسير علينا أن ندرك ملامحها قبل ان تنتقل الى صورة أخرى .

ويمكن تلخيص القصة ـ ولا يسعنا الا التلخيص فى مجال ضيق كهذا ـ فى مرحلة الطفولة ثم إبان دراسة بطل القصة فى كمبردج والسنوات التالية يخصبه ثم حبه لفورينتا التى لم تكن مخلصة له وخيبة الامل التى تحول مدينة لندن الى كابوس مزعج تبدو فيه الشوارع وكأنها صخور جارحة ثم موته الفجائى فى الحرب .

ويدخل « القارىء » فى النهاية فقط الى حجرة يعقوب ويتأمل مخلفات صاحبها الذى قتل فى الحرب ، ويسمع والدته تسأل « ماذا سأفعل بأحذيته البالية ؟ » ويخيل الى القارىء ان القصة تبدأ من هذه النقطة وان فيرجينيا وولف قد رجعت الى الماضى لتقص علينا حياته فى مناظر حتى تصل الى نقطة البداية . وتسبح حياته وكأنها شريط (اليوم) صور العائلة ووجدنا أن الحياة قد دبت فيها او كأننا نشاهد شريطا تقريريا تحتفظ فيه بالصور والصوت .

ويمكننا العثور على يعقوب فى البيئة التى عاش فيها وفى الاماكن التى زارها او فى الاشخاص الذين احتك بهم . وهذه احدى وسائل فيرجينيا وولف فى رسم شخوصها ، فربما لاتعبر البطل اهمية قصوى ـ وهذا ما نراه فى هذه القصة ـ ولكنها تدرس اثره فى الآخرين . وكل منظر من مناظر القصة منظر حى ولكن لم تستطع فيرجينيا وولف ان تسيطر على شخصياتها سيطرة تامة فى هذه القصة فلا تساعد المناظر كلها على تفهم البطل وكثير منها يهتم بشخوص ليس لها علاقة بالبطل فى تلك اللحظة ولا يلتقون به بعد ذلك .

ولكن فيرجينيا وولف نجحت فى محاولتها الاولى فى نقل تلك الروح المتحررة للحياة من حولها واستطاعت ان تسجل حركات المد والجزر لا فى نفس يعقوب فحسب بل فى نفوس من كانوا حوله . وصفحات الكتاب مملوءة بالفرح بالحياة المتحررة وبالالوان المتعددة لسرها ويبقى هذا الشعور مع القارىء حتى بعد مغادرته لحجرة يعقوب التى تنطق محتوياتها بقصة انسان عاش فيها لفترة من الزمن ولن يعود اليها ثانية .

وتشبه عين فيرجينيا وولف فى هذه القصة وغيرها عين الكاميرا التى تعتبر مسؤولة عن هذا التغير المفاجىء من منظر الى آخر وطريقتها هنا تشبه الى حد ما طريقة التكعيبيين فى ابراز العلاقات بين تجربة واخرى أو بين منظر وآخر بوضعهم

للواحد بحوار الآخر ومعنى القصة يمكن تلخيصه في ان الزمان والموت والاحباط يلقون بظلالهم السوداء على أحلام الشباب الزاهية ، وتطفىء الحياة نار الحب المشتعلة وتترك الانسان حلمها رمادا وحطاما وترابا . وفي هذه اللوحة الزيتية او في هذا الفيلم تستمر فرجينيا وولف في البحث عن سر الحياة وعن معنى في التجربة الانسانية ، ولكن السر يظل سرا .

مسز دالواي ١٩٢٣

تعتبر « مسز دالواي » بداية أسلوب فرجينيا وولف في كتابة القصة ، وتشبه « مسز دالواي » الى حد ما قصة « عوليس » لجيمس جويس ، و« مسز دالواي » تستغرق يوما واحدا كقصة « عوليس » وتدور حوادثها في يوم من ايام شهر يونيو كعوليس ايضا . ومعظم الحوادث والافكار والخواطر التي تسجلها فرجينيا وولف ، وكما يفعل جويس في (عوليس) تعتمد تأفهه الى حد ما . وادا عاب عن القارىء تسلسل القصة فستبدو وكأنها شطحات مجنون او اشتات من افكار مفككة لا رابط بينهـــا .

والشخصية المراد رسمها وفحصها وتسجيل خواطرها هي مسز دالواي ، وتعرف كل ما يحدث لها في هذا اليوم ـ ما تراه وتشمه وتسمعه وتفكر فيه وتحس به وتتذكره . وتسجل لنا فرجينيا وولف كل انطباعاتها دقيقة بدقيقة على طريقة دوروثي ريتشاردسون بالاستعانة بتكنيك جيمس جويس . ومسز دالواي في الخمسين من عمرها ومتزوجة من أحد اعضاء البرلمان الانجليزي ولها ابنة عمرها ١٧ عاما . وتقيم مسز دالواي في مساء ذلك اليوم حفلا بمناسبة عيد ميلادها ولذلك نراها مستعدة لهذا الاستقبال منذ الصباح فتخرج لشراء الازهار وتتكلم مع الخدم وتعطيهم ارشاداتها للترتيبات النهائية وتسلي لبضع دقائق صديقا لها كان قد عاد من الهند وتحيك بعض الملابس كما تفكر طول الوقت في مشكلة الوجود والحياة والموت . ويسمو على مسز دالواي الثبات والاتزان ولكنها في داخل قرارة نفسها حزينة تتحسر على الاشياء الكثيرة التي لم تستطع ان تحققها كل هذه السنوات . وهذا اليوم في حياتها ، وهو جسم القصة داتهاومادتها الخام ، تصر عمه فرجينيـــا وولف في موجولوج داخلي طويل هو نهر المواعيد وتيار وعيها الذي يتدفق بهدوء ولا يبالي بالزمن من بينما تقطعه من آن لآخر دقات ساعة بيج بن تعلن ساعات اليوم وتشير الى التقابل بين الزمان السيكولوجي والزمان الميكانيكي .

ولا تهتم فرجينيا وولف بما يحدث يوميا عادة ولكن ما يهمها هو ما يحدث داخل رأس الفرد نفسه في يوم معين وتقول في مقال لها عن القصة الحديثة : « ان الحياة ليست سلسلة من المصابيح في ترتيب منظم ، ان الحياة هالة مضيئة ، غلاف شبه شفاف يحيط بنا منذ بدء الوعي حتى النهاية » . وتصبح مهمة القصاص هي عرض هذه الهالة المتغيرة السريعة الزوال ، خضوع الحركات والتصرفات الظاهرة للافكار الخاصة والشعور الذي يسيل من تيار الحياة المتغير في النفس البشرية . وادا ما

استطاع القصاص ان يمسك بهذا الخيط فحصاه بتعميم هذا الوصف ليوم في حياة مسز دالواي مثلا لكي يصبح اى يوم في حياتها أو حياة اى شخص في اى بقعة من بقاع العالم ، ويبحث عن هذا شعور عميق بأن الفرد ما هو الا جزء من تيار الوجود نفسه الذي يتحرك ويتغير باستمرار . ومعناه ايضا انه اذا ما القى الفرد بنفسه في هذا التيار المتغير فلن يصبح فردا مميزا بل سيغمره هذا التيار ويشده معه ليصبح جوهره جزءا من آخرين ويتساب مع تيار الانسانية كلها .

وكيف استطاعت فيرجينيا وولف ان تحقق هذا التكنيك في قصصها ؟ اولا باستغلال تيار الوعي ، واول من تكلم عن تيار الوعي هو وليام جيمس صاحب المذهب التجريبي (براجماتيزم) ، في كتابه « اسس علم النفس » وفي المجلد الأول في الفصل الذي يعالج فيه « تيار الفكر » يقول انه وحد بعد دراسة العقل والافكار الذاتية نهرا مستمرا ومكانا يزخر بالتعدد في الاشياء والعلاقات . وقد حاول العلم كما يقول ، ان يختزل الحياة المعقدة ويختصرها الى البساطة باعتبار الوعي ذاته شيئا منظما منطقيا . ولكن اذا نظرنا الى داخل نفوسنا لوجدنا عن طريق الاستبطان ان الوعي ماهو الا « تيار مستمر » ... « نهر او تيار » هي التشبيهات التي يمكن بها وصف هذا الوعي . ويقول « دعونا نطلق عليه من الآن فصاعدا (تيار الفكر) أو تيار الوعي أو تيار الحياة الذاتية » . وبعد ان زود القصاصين بمجال يستطيعون ان يطمو فيه ويسبلوا معه استطرد يحدثهم عن المشاكل التي قد تنتج عن هذه الطبيعة واصفها مشكلة الذات . ويقول ان شخصيتنا ليس لها نفس واحدة كما كان يظن القصاصون أو العلماء ، بل تتكون من عدة نفوس ، أو بالاحرى ، من مجموعة متغيرة سائلة من النفوس دون حدود مرسومة .

وفي نفس الوقت ثار برجسون على التحديد الميكانيكي ونادى بالحدس أو التعاطف الذهني وقال ان الحقيقة تكمن في « المتغير الذي لايمكن تقسيمه » في الوعي ذاته . وهذا الاستمرار نوع من « الأنية » التي تجعلها الذاكرة آنية مستمرة ، أو ، كما يقول جرترود شتين ، « حاضر يبدأ من جديد دائما » . والمشكلة في العلم أو المنطق أو الساعات هو محاولتها اخضاع هذا السيل الجارف المستمر المتغير من الحقيقة الى ادراك معين أو فكرة معينة .

ولعل هنري برجسون قد عبر اصدق تعبير عن فلسفة ويليام جيمس حين قال : « ان الواقع ــ كما يراه جيمس ــ كثرة وفيضانا من الأشياء . ان الفرق بين هذا الواقع والواقع الذي يبنيه الفلاسفة كالذي بين الحياة التي نحياها كل يوم ، والحياة التي يعرضها علينا الممثلون في رواية مسرحية . حيث لايقول أحدهم شيئا سوى ما يجب عليه أن يقول ، ولا يفعل سوى مايتبغي ان يفعل ، وحيث توجد فصول ومشاهد مقسمة ، وللفصل بداية ووسط ونهاية . أما في الحياة فلن نجد من هذا شيئا ، نجد حشدا من الكلام وقد تؤدي مجموعة من الحركات والارشادات لا جدوى منها . ليس هناك شيء يمر كاملا ، حلوا ، كما نريد ، كما انه لاتوجد خاتمة مرضية تقف

عندها ، ولا حركة او اشارة جد حاسمة . تلك هي الحياة الانسانية ، وهي الواقع عند جيمس »

وضيف وعند فيرجينيا وولف أيضا . ويقول جيمس وبرجسون أن القصاصين الذين يطبقون المنطق والعلم على شخوصهم قد شوهوا الحياة والحقيقة وبسطوها ، فقد حاولوا ان يصنعوا الشخوص في قصصهم بصنعات معينة ويصعون عليها بطاقات فتصبح جامدة ولهذا يصنعونها في اطارات معينة وتبقى حبيسة يرسمون حولها خطوطا ودوائر لاتحيد عنها ويحدون من افكارها ـ ويسيطرون عليها . ونصح برجسون القصاصين بأن يدخلوا الى نفوس شخوصهم عن طريق الحدس ويحاولوا ان يتخلصوا عن دقات الساعه وعقاربها والزمان الميكانيكي والمنطق وكل ما اتفق عليه في رسم الشخوص ، ونصحهم بان يسايروا مع تيار الوعي .

واذا نظرنا الى الشخوص في القصة الحديثة وفي قصص فيرجينيا وولف خاصة ، لوجدنا ان تلك الشخوص ينقصها الرسم الدقيق الذي اعتدنا عليه في قصص ديكنز وثاكري ولوجدنا أنه لا ترابط بين الشخوص وما يجري حولها ـ فنفوسهم متعددة وغالبا ما تحير تصرفاتهم العقل وتربك المنطق .

وينقلنا هذا العرض السريع لتيار الوعي الى مذهب فني آخر وهو الانطباعية في النثر القصصي وفي الرسم ، ففي الرسم يستعمل الفنان نقطا من الالوان الصافية دون ان يخلطها على لوحة الالوان ولا تظهر الصورة بوضوح الا عن بعد وبعد تركيز شديد عندما تبدأ الالوان في الاختلاط بعضها ببعض وتمتزج لتعطي احساسا بالتوافق والانسجام . ويقابل هذه النقط الزاهية في القصة التجارب المختلفة التي تحصلها الحواس واستنتاجات الافكار والمناظر المختلفة المتغيرة . ويصبح القصاص كالفنان يطل من نافذة في رأس الشخصية ويرصد ما يدور داخل هذا الاطار .

ويعتقد فيرجينيا وولف ان حقيقة الشخص توجد فيه في مكان ما ، وان عمل الاديب هو اكتشاف هذا الجوهر المستتر . ولا يمكن اعطاء صورة عن هذا الجوهر عن طريق رصد ودراسة افعال الشخص الخارجية وحركاته حتى ولو سجلناها كلها واعددنا في اعتبارنا كل ما « يحدث » . ولكن يمكننا الوصول الى الجوهر عن طريق البصيرة أو الحدس وبهذا يمكننا الاندماج في تيار افكاره الحي الذي يجري في وحداته .

وقد استطاعت فيرجينيا وولف ان تقترب من هذا التيار الواعي وتسجله وتسيطر عليه في « مسز دالواي » . استطاعت ان ترصد العقل في حالة التغير المستمر هذه وتمسك بالخيط من اوله وتبدأ في عملية الغزل وتحرك مع « المكوك » بين اللحمة والسداء حتى يتم لها نسيج القصة كلها . وتبدأ بطرف الخيط في « مسز دالواي » في أول جملة من القصة

« قالت مسز دالواي انها ستشتري الازهار بنفسها .

فقد حددت للوسي عملها بدقة . ستمزع الابواب من محاورها . كان رحال

« رمبلماير » سيحضرون ... وبعد ذلك ... دار بخلد كلاريسا دالواى ... بالله ... صباح ... منعش وكأنه طلع لأطفال على شاطئ البحر ...

يالله من مرح ! يالها من وثبة ! هكذا كان الامر يبدو لها دائما عندما كانت تفتح الباقة ، وتها صرير من محاورها ، وكانت تسمعه الآن ، وتقفد في « بورتون » الى الهواء الطلق ... كان الهواء منعشا ، والهدوء تاما في الصباح الباكر ، اهدأ من هذا بالطبع ، كحفقة من موجة ، فملة موجة ، باردا وحادا ومع ذلك (بالنسبة لفتاة سنها ثمانية عشر ربيعا في ذلك الوقت) مهيب ، كانت تشعر بهذا ، وهي تقف هناك عند الباقة المفتوحة ، ان شيئا عظيما كان على وشك الوقوع ، كانت تنظر الى الورود ، الى الأشجار والدخان يتلوى بعيدا عنها والعربات تعلو ، وتهبط ، كانت تقف وتنظر الى ان قال « بيتر والش » « تأملي وسط الخضراوات » ـ هل هذا ما قاله ؟ ـ « الى افضل الرجال على القرنبيط » ـ هل هذا ما قاله ؟ لابد انه قال هذا في صباح يوم على الافطار وكانت قد خرجت الى الشرفة ـ بيتر ولش ... سيعود من الهند في يوم ما ، يوليو او يوليو ... لقد سئمت انهما ، لأن خطابه كانت مملة ، كانت افواله هي التي تذكرها ، عيبه ، مطواته ، ابتسامته ، حدة طبعه ، وعندما يزول أثر ملايين الأشياء ـ ان الأمر غريب حقا ـ عبارات قليلة مثل هذه هي الكرسب ...

وجلست قليلا عند آخر الرصيف ، تنتظر مرور عربة « دارتسول » ... امرأة جذابة ، كان هذا اعتقاد « سكروب بورفيس » (كان يعرفها كما يعرف الانسان حيوانه في وستمنستر) ... لها مسحة من طائر ـ ابو زريق ، ازرق ـ احمر ، حمامة مرحة ، ولو انها فوق الخمسين ، ولونها شاحب منذ مرضها ... كانت تحط هناك ، لن تراه ، تريد الصور ، تقف منتصبة ... »

ويظهر التكنيك السينمائي في هذه الصفحة الافتتاحية لمسز دالواي بوضوح وكذلك تيار الوعي ... فنرى كلاريسا تفكر في شراء ازهار للحفلة وهي العمل الذي طلبت من نوسي انتها ان تقوم به ثم فجأة تفكر في اللحظة الحاضرة وتعلق على صفاء الجو في هذا الصباح ويثقلها احساسها بهذا الصباح المنعش الى الماضي البعيد والى مكان آخر وتختار ذكريات مضى عليها اكثر من عشرين عاما ، تلك الايام الجميلة التي قضتها في « بورتون » ... وتستمر في العيش في الماضي وتتذكر ما كان يقوله بيتر والش ويقابل هذا التكنيك اللقطة القريبة في السينما ... ويتبع هذا تحليلها لزيارة بيتر والش لمدينة لندن ... وتقف عند آخر الرصيف تنتظر مرور عربة « دارتسول » ... وهنا تترك وعي كلاريسا دالوي لصفحة اسطر وتدخل وعي شخص آخر يراقبها وهي تنتظر العبور وهو (سكروب بورفيس) جارها في حي وستمنستر ... ثم تعود الى تيار وعيها بعد ان تعرف من جارها ان سنها يزيد على الخمسين عاما وانها كانت مريضة ...

وتيار الوعي في قصصها اقل تعقيدا منه في قصص جيمس جويس ويتميز اسلوبها بالشاعرية والموسيقة ... ولا تحاول فرجينيا وولف ان ترصد أو تسجل

افكار شخوصها كل على حدة وتعطي كل واحد منها طابعا مميزا ، ولكنا نلاحظ ان كل شخوصها تتكلم بلسانها وتفكر بعقليتها ونوعيها وبمنطقها وهنا يظهر ضعفها ، وتصبح شخوصها مملة احيانا نظرا للتشابهها الذي يقضي على المتعة في التنوع ، ومن الامور المملة ايضا عدم تقسيمها القصة الى ابواب وفصول ولا تظهر فواصل مميزة في السرد من بدايته الى نهايته وكان تيار الوعي خيط طويل جدا اوله اول كلمة في القصة وآخره آخر كلمة فيها ، وفي القصة اسلوب واحد وطريقة عرض واحدة دون اي تغيير في الاسلوب وهذا التكنيك يفرض على القصة ايقاعها منظما حتى ان الانتقال من تيار وعي شخص الى آخر يصبح من الامور الصعب اكتشافها .

واذا قارنا « مسز دالواي » بقصة « عوليس » لجيمس جويس لوجدنا ان تيار وعي ستيفن يختلف اختلافا كليا عن تيار وعي مستر بلوم أو مسز بلوم ، فشخصية كل فرد في « عوليس » يسيرها تيار وعيها وطابع تفكير الفرد ومفرداته ، أما في « مسز دالواي » فنرى ان الشعر الذي تعبر به الشخوص عن نفسها هو نفس الشعر الذي تستعمله فرجينيا وولف .

ومن مميزات اسلوب فرجينيا وولف في كتابة القصة قدرتها على ابراز الشخصية واضافة ابعاد جديدة لها بالرغم من كونها تعيش في الحاضر ، فحركة تيار الوعي الى الامام والى الخلف ، الى الماضي والمستقبل ومنهما الى الحاضر ، يمكنها من تغطية مساحة كبيرة من حياة الفرد في بضع دقائق او بضع ساعات ، وهذا لا يعني احساسا بالشخصية فحسب بل يضيف الى قصصها ابعادا فلسفية ، وليس هناك شيء جديد في هذه الطريقة التي تنقلنا الى الماضي أو المستقبل أو ما يطلق عليه في التكنيك السينمائي باللقطة القريبة او البعيدة أو الارتداد ولكن ما يحب علينا ان نقدره هو قدرتها على تناول مشكلة الزمان وسرعة الانتقال منا من وقت الى آخر ومن مكان الى آخر بهذه السهولة المتناهية حتى اننا لا نشعر ونحن نقرأ لها اننا قد انتقلنا الى الخلف عشرات السنين .

وتؤثر الزمان تاثيرا عظيما في حياة شخوصها وتظهر قدرتها عندما تقارن بين الزمن الميكانيكي والزمن الذاتي ، والزمن الميكانيكي زمن قاس لايمكن اطالته أو تقصيره أو استعادته ، اما الزمان الذاتي فيمكن بسطه وايجازه واستعادته في الوعي عن طريق الذاكرة ، وعندما تضع فرجينيا وولف في « مسز دالواي » الزمان الميكانيكي بحوار الزمان السيكولوجي تظهر لنا المفارقات العجيبة ، فقد تسلل الانكار وتملأ ثلاثين صفحة من القصة في مدى ربع ساعة حسب دقات ساعة بيج في حين نقرأ صفحتين أو ثلاث في مدى ساعة ونصف ويسيطر الزمان الميكانيكي على الشخوص المهمة في القصة امثال كلاريسا دالواي وبيتر والش وسبتيموس سميث بينما يستحوذ الزمان الذاتي الذي يسمو فوق الزمان الميكانيكي ويتعدى التسلسل التاريخي على كيانهم ، وزمن الساعة في القصة زمن محايد ، غير ذاتي ، لايمكن استعادته أو التحكم فيه ونقول « كانت ساعة بيج بي على وشك ان تدق التحذير اولا ، نعم ، ثم الساعة ، لا تستعاد » .

ويوتر الرمان اميكانيكي يسكن عالم كل الشخوص التي بها كيان خاص وتستعير فيرجينيا وولف من التكنيك السينمائي فكرة المونتاج المكاني لتسكن كل شخوصها في لحظة من لحظات وجودهم في وقت واحد وهم يقومون باعمال مختلفة كما في هذه الفقرة :

« كانت الساعة الثانية عشر بالضبط - الثانية عشر بتوقيت بيج بن ، وكانت بعدها تسمع فوق الجزء الشمالي من لندن - تخلط بدقات ساعات اخرى ، وتختلط بطريقة اثيرية دقيقة بالسحب واعمدة من الدخان ، ثم تلاشت هناك الى اعلى بين طيور الدورس - دقت الساعة الثانية عشر عندما وضعت كلاريسا دالواى مسنانها الأحمر على السرير ، ومشت عائلة وارين سميث في شارع هارلي - كانت الساعة الثمانية عشر هي ميعاد لقائهم - وربما ، ظنت ريزيا ، ان هذا المنزل هو منزل سير وليام برادشو الذي امامه السيارة الرمادية - وتلاشت الدوائر القاتمة في الهواء . »

فشخوص القصة المنتشرة في اتجاه مدينة لندن وفي شوارعها ترتبطها مناظر مشتركة يشاهدونها من اماكن مختلفة في نفس الوقت - فالطائرة التي ترسم اعلانات بالدخان في الهواء عن نوع من الحلوى تشاهدها مسز كوينس ومسز ليتشفيلد وتشاهدها مستر « بول » من مكان واحد ، ثم تشاهدها عائلة سبتيموس وارين سميث من مكان آخر . وتحلق الطائرة كذلك فوق بتر والش وهو سير في الطريق . وتطلق فيرجينيا وولف على الطائرة كلمة « التركيز » أو البؤرة :

« **وانطلقت الطائرة بعيدا بعيدا الى ان اصبحت شرارة لامعة - غاية . تركيز . رمز ... لروح الانسان . لتصميمه ... على الخروج من جسده . بعيدا عن منزلة . عن طريق الفكر . اينشتين . التأمل . الرياضيات . نظرية « منديل » - وانطلقت** الطائرة بعيدا . وهذه الطريقة تمكن فيرجينيا وولف من خلق عالم صغير تشترك فيه الشخوص كلها على مسرحها الصغير في الاستماع الى نفس الشيء ومشاهدته - وتمكنها هذه الطريقة من دراسة الترابط والوحدة في شخوصها عن طريق ابراز تجاوبهم المشترك المتزامن مع شيء واحد وبهذا يصبح اليوم رمزا لكل الأيام والمكان رمزا لكل الأماكن ومجموعة الشخوص رمزا للبشرية ويتضح نسيج القصة اذا تأملنا الخطوط الطولية والعرضية التي يمثلها تقاطع سير الشخوص أو تلاقيها في مدينة لندن وتفاعلهم وردود افعالهم مما يوحي الينا بالترابط والوحدة .

وما هو الدرس الذي تريد فيرجينيا وولف ان تلقيه علينا ، اذا كان هناك درس ، فليس لديها اشارات الى الناحية السياسية أو الاجتماعية ، وليس هناك رسالة وربما ارادت فيرجينيا وولف ان تلمح لنا بها في عبارة تمر بخاطر بيتر والش حين يقول :

« **وربما ما كان يعوضه عن كبر سنه ، احد بيتر والش يفكر ، وهو يخرج من ريجينت بارك ، ممسكا بقبعته في يده ، هو هذا : ان العواطف تظل قوية كما كانت دائما . ولكن الانسان قد اكتسب - في النهاية ! - القوة التي تضيف طعما رائعا للحياة ، - القدرة على الامساك بالتجربة وتعمقها ، ببطء ، في النور .** »

والتجربة التي تمسك بها فيرجينيا وولف لتعلنها في يدها وتتمسها هي حقيقة الحياة والموت ، أو باختصار ، معنى تيار الوعي ذاته الذي يحملنا على صفحته منذ ولادتنا حتى الموت وظهور صور الامواج والأنهار في قصصها يؤكد هذا التفسير وتحول في مسز دالواي على لسان بيتر والش

« وهذه هي الحقيقة عن روحنا ، كان يفكر ، ذاتنا ، التي تسكن ، كالسمكة ، بحورا عميقة ، تروح وتجيء وسط الغموض تغزل طريقها بين سيقان اعشـــاب ضخمة ، فوق اماكن تصوى فيها اشعة الشمس ، وتغوص الى اسفل واســفل حتى تصل الى ظلام ، بارد ، عميق ، غامض ، وفجاة تنطلق الى السطح وتلهو فوق الأمواج التي تداعبها الريح . »

ولا عجب اذن في ان تكتب فيرجينيا وولف فيما بعد عن « الأمواج » في قصة مستقلة . ولا نستطيع ان نجد مقره أو حملة نحدد بها موقف مسز دالواي من الحياة والموت بشكل قاطع ، وصفحات القصة تزخر بالرؤى التي تنير لشخوصها ولنا الطريق امتراق ثم يخبو ضوؤها ثانية ولكنها كافية لان تشير الى تدفق الحياة التلقائي . وتسيطر مسزدالواي على مسرح القصة وتصبح بمثابة بؤرة تلتقي وتتجمع فيهـــا مشـــاعر الشخوص الأخرى واحاسيسهم حتى الخدم . ويؤمن روجها ريتشارد بانه سعيد الحظ برواحه منها ، حتى حطيبها القديم بيتر والش لازال قلبه مملوء بنفس الحب العميق لها . فكل الشخوص تسحب مسز دالواي فهي بؤرة من النور ، مركز للحب ولو انها منحرفة الى حد ما وباردة وعلاقاتها سطحية مع الآخرين . ولكن بالرغم من كل هذه المتناقضات في شخصيتها فهي تهتم بالجميع في قرارة نفسها وتهتـــم بمشـــكلة التوصيل والعلاقات دون ان تستطيع هي ان تحقق هذه الروابط والعلاقات .

« ... وماذا كان يعني الأمر بالنسبة لها ، هذا الشيء الذي كانت تسـميه الحياة ؟ آه ، ان الامر كان غريبا ، كان فلان هنا في كمبردج ، وشخص ما هناك في « بايزواتر » ، ولنقل شخص آخر في « هايجيت » . وكانت دائما تشعر بوجودهم ، وكانت تحس ان الأمر كله ضياع ، يا للخسارة ، وشعرت لو كان في الامكان جمع شملهم ، وفعلت هذا . وكان هذا عرضا ، لجمع الشمل ، للخلق ، ولكن لمن ؟ »

وتتحرك القصة بافكارها وحوادثها البسيطة حتى تصل الى ذروتها في الحفلة النهائية وتتلاقى الخيوط الرفيعة وتتقابل الشـــخوص الرئيسية في زمان ومكان واحد . ومن بين الضيوف يدخل سير وليام برادشو لكي يضفي على العلاقة الروحية بين عائلة سبتيموس وارين سميث ـ تلك العلاقة التي ظلت حتى الآن مجرد توافق في الافكار والمشاعر والخيال ـ نوعا من الواقعية . والشخص الوحيد الذي لم يحضر الحفل هو سبتيموس الذي انتحر ويمثل في القصة جدولا صغيرا من تيار وعي كلاريسا دالواي . وكان سبتيموس هو الوحيد الذي كان في استطاعته التعبير عن الرسالة السامية التي تحاول مسز دالواي ان تعبر عنها وهي حب الانسانية . وكان سبتيموس جنديا اصيب بصدمة اثناء الحرب ولكنه كان يكتم سرا دفينا في صدره . ودفعه هولمز

وبراندشو دعما الى الانتحار بعد ان حاولا ان يلقيا به في مستشفى للمجانين لأنهما فشلا في العطف عليه . وترمز فيرجينيا وولف الى من قاموا بتحطيمه بالطبيعة البشرية ، بالعقلية العلمية المنطقية . وبالرغم من تعبيه عن العمل فلازالت روحه ترفرف فوقهم لانه يمثل «الهي» عند كلاريسا دالواى او النفس الطاهرة الصافية او الجانب الحدسي المتعقل المعزب في شخصيتها . وتشير مسز دالواى الى هذه النفس بقولها

« ولكنها كانت تقول ، وهي جالسة في الاتوبيس المتوجه الى الشارع شافتزبرى انها تشعر وكأنها في كل مكان ، ليس « هنا ، هنا وهنا » ، ولمست ظهر المقعد ، ولكن في كل مكان ، ولوحت بيدها وهي في طريقها في شارع شافتزبرى لقد كانت كل ذلك . ولذلك اذا أردنا ان نعرفها ، او نعرف اي شخص آخر ، فلابد لنا من البحث عن كل الناس الذين كانوا يكلمونهم ، حتى الاماكن . كانت تربطها روابط غريبة باشخاص لم تتكلم معهم اطلاقا ، سيدة ما في الشارع ، رجل خلف طاولة للبيع ... وكانت تعتقد أنه اذا كان ما يظهر هنا ، ذلك الجزء الذي يظهر هنا ، يمكن مقارنته ولو لمحطة بالذات الاخرى ، التي لاتراها ، والتي تنتشر في دائرة كبيرة ، بهذه الذات التي لاترى ربما تحيا ، ويمكن اكتشافها متعلقة بهذا الشخص او ذاك ، وربما ظلت تهيم في أماكن معينة بعد الموت ... ربما ـ ربما » .

ويظل الاتصال أكثر من مجرد تفاعل أو تلاقي في لحظة ، ويظل الفرد في حياته محتفظ بفرديته ، وهي الموت تقول فيرجينيا وولف .

« الموت تحد . كان الموت محاولة للاتصال ، والناس تشعر باستحالة الوصول الى المركز الذي كان ، من الناحية الصوفية ، يراوغهم . في التقارب الحرال ، تدوى النشوة ، ويصبح الانسان وحيدا . لقد كان في الموت عناق . »

***

« الى الفنار ١٩٢٧

« مامعنى الحياة ؟ » كانت ليلي بريسكو ، تتساءل وهي تتأمل لوحتها الزيتية التي لم تنتهي منها في « الى الفنار » وهذا هو السؤال الذي رددته فيرجينيا وولف في « مسز دالواى » وتعود في « الى الفنار » الى نفس السؤال ونفس الحيرة في محاولة اخرى للامساك بالحياة وبالتجربة الذاتية . وقطعة الحياة التي تتأملها فيرجينيا وولف في «الضوء في قصتها « الى الفنار » وتختارها للتحليل الدقيق ليست قطعة كبيرة فقد حددتها لنا فيرجينيا وولف منذ البداية . فقد وصفت شخوصها تحت ضوء قوى وسلطت عليها انوارها حتى لتبدو القصة كلها وكأنها لوحة دقيقة الصنع . وتقسم القصة هذه المرة في ثلاثة اجزاء رئيسية لأسمائها أبعاد لها معنى ـ « النافذة » ، ولا يخفى التشابه بين النافذة واللوحة الزيتية باطارها و « الزمان يمضي » والجزء الأخير « الفنار » .

لعائلة تنوي القيام برحلة الى القمر من اجل الصغير جيمس بالرغم من تحذير الوالد بان الجو لن يكون مواتيا لمثل هذه الرحلة ، ولا تتم الرحلة . وفي الجزء الثاني يبقى المنزل خاويا وتتقدم الشخوص في السن وتتهدم المنزل من جراء مرور الزمن وعصفه، وتموت مسز رامزاي واثنين من أبنائها ويتحكم الزمان في كل شيء . وفي الجزء الأخير تعود الشخوص الى المنزل وتتم الرحلة وتنتهي ليلي بريسكو من لوحتها .

ومنذ المحاولات الاولى في الفصل الاول وحتى اتمام الرحلة في الفصل الاخير الفنار يصونه واشعاعه يسيطر رمزيا على القصة . فالفنار رمز للأمان والطمأنينة ورمز للكشف والاستنارة والنور وسط الظلمات ، رمز للاشارات والايماءات والاستمالة وفيه اشارة الى الضوء والومضات التي تظهر وتختفي لكل من يعيشون في الزمان او في بحر الظلمات . وهو الى جانب ذلك قلعة طويلة صلدة في وسط هذا الخضم من الامواج المتغيرة . فهذا البحر الذي يكتنفه الغموض وتسيل على صفحته الامواج وتزخر اعماقه بكل ما هو غريب وغامض وبارد ومظلم . وهذا الرمز يحيرنا وبحر فرجينيا وولف ، فالمرجع مما له من فائدة في ارشاد السفن الضالة فهو يظل سلبيا منعزلا والعلاقة بين الفنار ومسز رامزاي تظهر منذ البداية .

« وغالبا ما كانت تجد نفسها جالسة تنظر ، حتى اصبحت الشيء الذي تنظر اليه ـ ذلك الضوء ـ مثلا ـ وكانت أحيانا عبارة معينة أو أخرى من العبارات التي كانت تستمر في عقلها ...

كانت تمدح نفسها وهي تمدح الضوء دون غرور ، فقد كانت قاسية ، كانت ثاقبة وتبحث ، كانت جميلة مثل هذا الضوء ، لقد كان الأمر غريبا . كانت تظن ، وكيف يميل الفرد اذا كان وحيدا ، الى اشياء عديمة الحياة ، اشجار ، حدائق ، ازهار ويشعر انها تعبر عنه ، تشعر بالوحدة معها ، تشعر أنها تعرفه ، انها صارت مثله ... »

ويقول داڤيد داتشيس ان الفنار « رمز للفرد الذي يعتبر انسانا فريدا وفي الوقت ذاته جزء من المتعبر . والوصول الى الفنار قد يعني الوصول أو الاتصال بحقيقة خارج الذات ، أو تناول الذات عن الأنا في سبيل حقيقة غير ذاتية » ولا يتم ذلك الا بعد الوصول الى الفنار وحينئذ تزول المتناقضات ويصبح الموضوع والذات شيئا واحدا وتدهب الانانية وتفسح الطريق للحقيقة .

ويعتبر « الى الفنار » محاولة اخرى لاكتشاف طريقة فنية لاعادة خلق الحقيقة التي توجد في الشخصية ويمكن اعتبار القصة اكثر قصة لها . وكان الاحداث جزيرة نائية غير معلومة في الهبريدز (مجموعة من الجزر يبلغ عددها ٥٠ على بعد من الشاطىء الغربي لاسكتلندا) ، والزمان احد ايام شهر سبتمبر وقبل نشوب الحرب العالمية الأولى بعشر سنوات ، والشخوص مستر رامزاي استاذ الفلسفة وزوجته واولاده مع بعض الضيوف يقضون اجازة ومع الضيوف صديقه هي ليلي بريسكو ، وقد

حاولت ليلي بريسكو طوال حياتها ان تمســـك برؤية او تدرك معنى الطبيعة وترجمتها الى الوان واشكال على لوحتها ، وحين تقابلها تدرك ان محاولاتها قد فشلت .

ونرى في الفصل الاول مسز رامزاي وهي سيدة جميلة تنحصر مهمتهـــا في الحياة في التقريب بين الناس والجمع بينهم وهوايتهـــا هي المزل بالابرة والبريكو وتراها في الصفحة الاولى تغزل روحا من الشرايات . والمزل هواية تسمح لها بالخلق الفني والابداع وبالنسج وتوضع الخيوط في اطار تماما كما تفعل فرجينيا وولف في قصصها . والمزل يشغل اصابعها ويعطي الفرصة لتفكيرها بالطواف والتجـــوال بحرية . ولا ينتهي اثر مسز رامزاي في الآخرين بموتها وكأنها توحي الينا ان الموت ما هو الا دخول في دورة اخرى من دورات المتغير ، فهي ستظل تعيش في نفـــوس الآخرين في نفس روحها ونفس ليلي بريسكو وفي لوحتها الزيتية .

ولا ندري عن موت مسز رامزاي الا في الفصل الثاني وفي جملة قصيرة معترضة في معرض الحديث عن المزل . ونعلم كذلك عندما تشير الى موت بروز واندرو رامزاي — ونزل العائلة الجزيرة والمزل وتطرأ تغيرات كثيرة على المزل وعلى افراد العائلة — فيصبح المزل قديما متهدما ويقتل ابنها « اندرو » ويـــــتمر الصراع بين جيمس ، والده وتموت ابنتها « بروز » اثناء ولادة طفلها واخيرا وبعد عشر سنوات بروز ما بقي من افراد العائلة الجزيرة مرة ثانية ومعهم ليلي بريسكو . وفي الفصل الاخير يحقق الصغير جيمس رغبته في زيارة المنار وتستكمل ليلي بريسكو من الاعلى شاه من رسم لوحتها — وبالرغم من عدم وجود مسز رامزاي معهم الا ان روحهـــا هي التي تتحكم في احداثه وتحل محلها ليلي بريسكو .

وفي نطاق هذه القصة البسيطة استطاعت فرجينيا وولف ان تجمع خيـــوطا كثيرة وتغزل نسيجا غريبا من الآراء والرموز . وما يقال ويسجل قليل في هذه القصة ايضا — فتات من افكار وآمال لاتتحقق ورغبات ومخاوف وتأملات في الحياة والموت — كل هذه تتدفق على صفحات القصة وتسجلها فرجينيا وولف كلمـــا طافت بعقول اصحابها . يخيل الينا احيانا ان تجمعات هذه النقاط تكون لوحة انطباعية جميلة وتكشف لنا عن جانب من الجوانب العديدة للحقيقة ولكن معناها العميق سرعان ما يفلت من بين ايدينا ، وعوضا عن هذا ، فهناك معجزات يومية بسيطة ، استنارات ، عواد من الثقاب تشعلها في الظلام » .

وفي النهاية نحظى باحساس غريب بأن هناك املا ، املا صادق يتحقق وتتم التجربة بطريقة ايجابية . فمرور المنار وتنتهي ليلي بريسكو من لوحتها على اثر رؤيتها لمسز رامزاي على درجات المزل .

« ونظرت الى الدرجات ، وكانت خالية ، ونظرت الى لوحتها ، ووجدتهـــا غير واضحة . وبشعور دافق وكأنها رأتها بوضوح للحظة ، رســـمت خطا هنـــاك ، في المركز . وتمت . وانتهت منها . نعم ، احدث اثر ، وهي تضع فرشاتهـــا في اعلى

تالع ، لقد حققت رويتي » ، ولوحة لبلي بريسكو تعبير عن الحقيقة التي تحت عنها فيرجينيا وولف فاللوحة تجسيد عن طريق الالوان والظلال لرغبتها في ان تجعل الحياة تقف ساكنة هنا وان تحمل من اللحظة شيئا ثابتا وهذه خاصية من خصائص الرسم والتصوير تحاول القصة ان تحاكيها ـ تجميد الزمان ذاته . وتقول ليلي بريسكو وهي تفكر في مسز رامزاي

« وفي وسط الفوضى كان هناك شكل ، ذلك التدفق الأزلي والجريان .. تحولا الى استقرار » ، توقفي ايتها الحياة هنا » كانت مسز رامزاي تقول « مسز رامزاي! » « مسز رامزاي ! » احدث تردد .

لقد كانت تدين لها بكل شيء » .

ولقد استطاعت فرجينيا وولف عن طريق الرمز ان تعبر عن عالم الفرد الداخلي وما ينتاب فيه ولكن بالرغم من قدرتها وحساسيتها الفائقة في تصيد هذه اللحظات وتسجيلها تحس دائما ، معها ، ان في الأمر شيء يدعو الى الاحباط . فلم تستطع ان تصور لنا سر الوجود في صورة واضحة ، فالسر اكبر واعمق واصعب من ان تحدده لوحة ربية أو رحلة الى فنار .

والقصة دراسة في العلاقات الفردية وفي الروابط الانسانية . وكما حاولت مسز دالواي ان تجد وسيلة للاتصال بآخرين في « مسز دالواي » في الحفلة التي تقيمها في آخر القصة ، تجدها تجمع فريقا من الاصدقاء في منزل ما على جزيرة في البحر وتظل مشكلة التوصيل والعلاقات كما كانت عليه ، ولكن فرجينيا وولف تسمح لبقية افراد العائلة بالوصول الى الفنار بعد عناء وتجارب شتى وحرب وموت ، ممنحت لهم بعد ان حصلوا على نصيب من الحكمة والوعي لتدلل على أن التجربة الذاتية شيء ضروري للوصول الى الراحة الذهنية والنفسية وتظل مسز دالواي والفنار بعيدا المنال ، فمهمتها ان يرشدا الضالين بالضوء الذي ينبعث منهما . وبعد سنوات من الألم والتجارب استطاع جيمس رامزاي الصغير الذي كان يود أن يقتل والده في أول القصة ان يتخلص من هذا الحقد « الأوديبي » ويصادق والده .

والماء الذي يحيط بالفنار لا اسم له لأنه بحر الحياة وتيار الوعي ولا بد أن يظل بغير اسم لأنه الحياة ذاتها . ومستر بانكس يرفض ان يلقي بنفسه في تيار الحياة ويظل على الشاطيء كما يوحي اسمه بذلك .

***

الأمواج ١٩٣١

تعتبر « الأمواج » تحفة من ناحية الاسلوب ويطلق عليها أحد النقاد « قصيدة نثرية » . وفكرة القصة هي امواج التجارب وهي تتكسر فوق مجموعة من الشخوص وعددهم ستة وتعرق بينهم فيرجينيا وولف بطريقة مبتكرة وتراقبهم جميعا في مراحل حياتهم المختلفة ـ من الطفولة الى النضوج الى الموت . وتتكون المجموعة من «برنارد»

وهو « البساطي » اسرعه ، احساسي يحاول دائما ان يعبر عن جوهر الحياة بكلمات وعبارات ، ، ثم (بيفيل) وهو (انطواني ، رقيق ، سريع الغضب ، صعب الارضاء ، قنوط يحمل من الصداقات والعلاقات التي يقدمها له الناس من حوله ، ، و«لويس» ذلك مدير تلك الشركة يقاسي من شعور بالنقص ، ومعهم ثلاث فتيات سودان وهي شهوانية تحب التملك و (جيني) وهي شيطانة صغيرة عنيدة مراوغة تعصي الاوامر دائما واخيرا « رودا » تحول تحب العزلة ولم تستطع ان تكيف نفسها ،

وتدعو فيرجينيا وولف القارىء ان يشارك هذه الشخوص احساساتهـــا ايام الطفولة عندما يكون العالم مكانا ساحرا جميلا مثيرا فيه عداء للحـــواس الى ايام الشباب الحالمة بما فيها من طموح وآمال الى مرحلة النضوج التي تحب شـــــعورا واحساسا عربيا لمعنى « الحقيقة » الى الاحساس بالحزن والفشل ومشكلة الموت حين يبتلع الزمان كل الآمال العريضة ،

وتترك فيرجينيا وولف برنارد وحيدا في النهاية ليلخص لنا ما صادفه في حياته كما تضع نفسها مكان كل شخص لتمسك بانطباعات الحياة وتجاربها عند مرورها السريع فوق الشخصية وتعبر عن اتجاهها وتدفعها وتسوقها الى النهاية — وتقتبس الزمان في القصة عن طريق تسع وقفات رمزية تشير الى مسار الشمس فوق البحر عند الفجر حتى الليل ، وهذه الفقرات الوصفية تعتبر من أجمل ما كتب في اللغـــة الانجليزية وهذه هي الفقرة التي تصف فيها ضوء الصباح :

وسقط الضوء على الأشجار في الحديقة ، وبدت احدى الاوراق شـــفافة ، ثم أحمرت ، وعرد طائر في مكان عال ، وكان هناك سكون ، وعرد آخر في مكان تحته ، وحددت اشعة الشمس جدران المنزل ، واستقرت كطرف مروحة فوق ستارة بيضـــاء رخامت نصفه اصبح زرقاء رقيقة من الظلال تحت اوراق الاشجار عند نافذة حجرة النوم ، وتحركت الستارة برقة ولكن الداخل كان معتما وغير ذي بال ، وغنت الطيور لهما المرسل في الخارج ، ،

وفي (الامواج) يجري البحث عن الحقيقة وقبل نهاية القصة ندرك ان الحقيقة موجودة ضمنيا في كل تجربة ولكن العقل لايستطيع ان يجردها ولا تستطيع الكلمات ان تعبر عنها ، ويعبر عن ذلك برنارد الذي كان يحاول دائما ان يحبس الحقيقة في عبارات ومفردات بقوله :

لقد سقط كتابي المحشو بالعبارات على الأرض — يرقد تحت المقعدة في انتظار ان تلتقطه مدبرة المنزل عندما تأتي مع الفجر تبحث عن قصاصـــات من الورق ، وتذاكر ترام قديمة ، ومن هنا ومن هناك ورقة سطوية في شكل كرة تركت لهـــا لتكنسها مع باقي الاوراق المهملة ... السكوت احسن بكثير ، فنجـــان القهوة ، والمائدة — ان الجلوس بمفردي كالطائر البحري الوحيد الذي يفتح جناحيه احســـن بكثير ، دعوني أجلس هنا الى الابد مع هذه الاشياء العارية ، فنجان القهوة هذا ، هذه السكين ، هذه السوكة ، اشياء في ذاتها ، ولذاتي ذاتها — لا تأتوا وتقلقوني بملاحظاتكم،

بعد أن الاوان ان اغلق الدكان وأرحل . انى على استعداد ان اضحى بثروتى كلها عن طيب خاطر بشرط ألا ترغموني ، وتدعسوني اجلس هنا واجلس في صمت ، وحيدا »

لقد امضى حياته كلها يحاول أن يسجن هذه الحقيقة ويجسدها فى عبارات ولكنها كانت كتيار الوعى وكأى تجربة نفسية عميقة بعيدة عن التعبير . واخيرا ادرك ان تيار الوعى أو الحقيقة هو ادراك ان « الفجر ما هو الا نوع من النور فى السماء ، نوع من التجديد ... نعم ، هذا هو التجديد الأزلى ، شروق وغروب مستمر وغروب وشروق آخر . »

***

وتصص فيرجينيا وولف انعكاس لبحث الرمز بين فى الشعر الحديث عن حقيقة موحدة لايصل اليها العلم ولا الفلسفة ولا العقل ، ولكن تصل اليها البصيرة المفهمة والحساسية فى الادراك التى تكاد تبلغ مبلغ الكشف . ووجهة نظر كهذه تنطوى بلا ريب على مضمون فنى عميق يعتبر بمثابة رد فعل واحتجاج على القيود التى فرضتها الثورة الصناعية فى انجلترا على فكر الفرد . وتبين فيرجينيا وولف فى قصصها ان اعظم الاخطار التى تهدد الانسانية هو فقدان البصيرة والحياة الداخلية تخرج قصصها فى نماذج علاج نفسى بالممارسة لهذا الاحساس وذلك بابداع اسلوب خاص بالفن تباهى به نفسها تتغنى بفرديتها خصائصها المميزة . عن طريق العلاقات الدافئة والتعاطف والحب بين الافراد يولد الانسان الكامل الذى يتمتع بكامل ذاتيته والذى يحقق امكانياته بتوسيع آفاق تجاربه الداخلية . ولهذا فقصصها انعكاس لنوع من الارستقراطية الفكرية تتعلق بكل ما هو نادر وفريد ومثلها الاعلى هو الفنان وليس المفكر او القديس ، ذلك الفنان الذى يجعل الحياة نفسها فنا بشعوره واحساسه بنواحى الجمال فيها الامساك بلحظات آنية بالرغم مما فى الحياة من تغير مستمر وابدا وحدتها فى قصصها غموضا فالسبب يرجع الى انها تعالج « حالات » ولا تقوم بمجرد التقرير الوصفى أو التحليل العقلى للتجارب الداخلية لايعبر عنها سوى الرمز وليس من المستغرب ان قصصا كقصص فيرجينيا وولف لها مطالب مثل هذه المطالب تعتبر أحيانا ترفا صوفيا خاصا بنخبة من العارفين بالاسرار ، لا صوتا معبرا عن المطالب المباشرة الملحة لمجتمع حديث . وتعد فيرجينيا وولف من اعلام القصة الحديثة لان لها روحا مبدعة حققت وسجلت ما فاضت به الحياة من اثراء وتؤكد قصصها عنصرا هاما فى الحياة وهو الانسانية أو الحياة ـ رهبتنا وسرورنا حيال اسرار الخلق وامام الروح الخلاقة التى تدع فى خفاء ما لايمكن حصره .